

مدخل إلى النظريات البيداغوجية المعاصرة - المحاضرة 1 -

تطور التيارات الفلسفية

تنامت الاتجاهات الفلسفية التربوية وتوالدت تياراتها محكومة بطبيعة الظروف التاريخية لتطور المجتمعات الانسانية، وقد تنوعت هذه الفلسفات بتنوع الاديولوجيات السياسية والتاريخية التي عرفها المجتمع الانساني منذ القرن التاسع عشر حتى اليوم.

ويجب علينا بديلة استحضار التيارين الفلسفيين الكبيرين: المثالية والمادية، بوصفهما الاطار العام لمخلف التيارات والاتجاهات الفلسفية التربوية على مختلف المراحل والخقب التاريخية، فهذان التياران هما أشمل المذاهب الفلسفية وأعظمها. فالمادية والمثالية في فلسفة التربية تشكلان البعد الفلسفي الأعمق والإطار الأشمل للفلسفات التربوية القديمة والمعاصرة. ويمكن الإشارة في هذا السياق إلى عدد من الفلسفات التربوية التي تمايزت بأهدافها ومكوناتها وغاياتها وخطابها التربوي. وأهمها الفلسفة الطبيعية في التربية، ومن أبرز روادها جان جاك روسو وباستاالوتزي، والتربية الوجودية التي سادت في أوروبا ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، وأيضا الفلسفة البراغماتية التي سادت في الولايات المتحدة الأمريكية في النصف الأول من القرن الماضي بزعامة كل من وليم جيمس و جون ديوي والتي انتشرت انتشارا كبيرا في مختلف اصقاع العالم، والفلسفة التربوية البنائية التي أسسها كل من جان بياجى السويسري و فيغوتسكي السوفياتي سابقا. كما لا يفوتنا الإشارة إلى الفلسفة الواقعية في التربية والتي كان لها شأن عظيم في أوروبا في القرنين الثامن والتاسع عشر، وكذا بالنسبة للفلسفة التربوية الإنسانية والوضعية. (علي اسعد وطفة، 2011، ص301، 302)

مفهوم البيداغوجيا والتربية

بداية يمكن البناء النظري لهذا الموضوع (النظريات البيداغوجية المعاصرة) من خلال التعرف على البيداغوجيا، والتي يندرج مفهومها ضمن المفاهيم القديمة قدم التربية، وقدم المجتمعات البشرية باعتبار التربية على حد تعبير دوركايم هي: "نقل وتمير للاثرا الاجتماعي

من جيل إلى جيل"، وقد رافق تطور مفهوم البيداغوجيا مفهوم التربية عبر العصور، والحقب التاريخية لكن دون أن يبلغ ما عرفه من منعطف حاسم خاصة منذ سبعينيات القرن الماضي، ففي المدينة اليونانية القديمة مهد مختلف العلوم انحصر مفهوم البيداغوجيا في مرافقة العبد للطفل من البيت إلى المدرسة "أي إعداده بيداغوجيا".

وقد أضاف إميل دوركايم أن البيداغوجيا نظرية تطبيقية للتربية تستمد مفاهيمها من علم النفس وعلم الاجتماع، ومن أهم البيداغوجيات: بيداغوجيا الأهداف، بيداغوجيا الإدماج، بيداغوجيا الفارقية، بيداغوجيا المشروع، بيداغوجيا النجاح، والبيداغوجيا بين وحدة الموضوع وتباين المقاربات قبل التقدم العلمي، والثورة الصناعية، وما عقبتها من تحولات شملت شتى مظاهر الحياة، وأصبح مفهوم البيداغوجيا يفيد ما معناه "تربية الأطفال"، وبالتالي أضحى المؤدبون والمعلمون يفخرون بكونهم أساسا بيداغوجيين. (الرتيمي ولكحل، 2012، 94، 95)

تطور الممارسات البيداغوجية

وفي القرن التاسع عشر مع ازدهار مختلف العلوم والتي من ضمنها العلوم الإنسانية توسع مفهوم البيداغوجيا، وأصبح يشتمل على جوانب نظرية وأخرى تطبيقية، فالجانب النظري منها يعني أساسا "مهنية أو فلسفة التربية" وبالتالي أصبحت البيداغوجيا مادة مستقلة بذاتها معتمدة في مدارس ومرشحة لاعتبارها مادة دراسية، أما الجانب التطبيقي لها فيعني الممارسة التربوية بشكل عام، مع التركيز على دراسة العلاقة التي تربط كل من المعلم بالمتعلم.

ورغم هذا المنحنى العلمي لتطور مفهوم البيداغوجيا، وخاصة على المستوى النظري، فقد حافظت الممارسة البيداغوجية اليومية في الأقسام، وخاصة من حيث التسميات، والطرائق، والوسائل المتوخاة على طابعها التقليدي، وكانت البيداغوجيا السائدة هي البيداغوجيا التي تتمظهر في الشخصية المتعالية للمعلم، وفي قداسة المعرفة الأنسيكلوبدية (المادة العلمية) على حساب المتعلم الذي يكتفي عادة بما يقدم إليه من معارف جاهزة، ومهيكله وفق إطار، ونسق غريب عنه يتولى حفظها عن ظهر قلب إن استطاع، ليستحضرها يوم الامتحان، يوم يسأل عنها فيعيدها كما هي، عملا بمقولة "هذه بضاعتكم ردت إليكم"، دون زيادة أو نقصان، مما

يضمن له النجاح، ثم ينساها ويعود غالب الأحيان، وبتقادم العهد يعود إلى ما كان عليه قبل تلقيها وحفظها. (الرتيمي ولكحل، 2012، 95)

وقد أفرزت هذه الممارسات البيداغوجية أوضاعا تربوية غير مرضية على كل المستويات، وعلى مستوى النتائج، ومردودية المدرسة؛ حيث برزت أقلية نالت الشهادات العليا وتكونت تكوينا متينا خاصة على مستوى تملك اللغة، واحترام قواعدها وعلى مستوى المعارف النظرية، بينما الأغلبية لفظتها المدرسة، وانقطعت عن الدراسة دون حصولها على تكوين يضمن لها اندماجا بشكل أو بآخر في سوق الشغل والمجتمع. فقد تميزت تلك الممارسات البيداغوجية بالآتي:

1- على مستوى البرامج التي تميزت بطولها وتعدد المسائل المقررة بالنسبة لكل المستويات

التعليمية وفي كل المواد مقابل ضيق الوقت لإنجازها مما أدى إلى تدمير المدرسين.

2- على مستوى تأليف الكتب المدرسية، حيث تعاقبت أجيال من الكتب همها الوحيد

استعراض المعارف، وتكريس الحفظ الآلي.

3- على مستوى تقييم عمل التلميذ؛ حيث ساد التقييم الجزائي والذي لا يستند أحيانا إلى

مقياس أعداد واضح، والتقييم انطباعي (خاصة في المواد الأدبية والاجتماعية)

وقد تفاقم هذا الوضع منذ أواخر السبعينات، وبدأ مشكل مردودية المؤسسة التربوية يفرض نفسه على الجميع خاصة أمام تزايد النفقات المخصصة للتربية والتعليم، وبدأ يتضح للجميع شيئا فشيئا ديمقراطية التعليم، ومجانيته التي ضمنها الإصلاح التربوي، والذي فرض تحديات ورهانات جديدة تستوعب الاستعداد لها بسرعة، فكل هذه الأوضاع المتفاقمة في الحقيقة أدت إلى إعادة النظر في البيداغوجيا المتوخاة حينئذ في التدريس، والتي كانت تركز أولوية المعرفة النظرية، والمعلم المكون في العملية التربوية مع تهمش الطرف الأساسي في العملية والمتمثل في المتعلم، فاخذت هذه العلاقة التي كانت تحكم المتعلم والمعرفة بالتغير بفضل الثورة الصناعية، والاتصالية، وظهور التطور الهائل في الاتصال والإعلام، كما أن لعب دور الوساطة الذي كان يقوم به المدرس بين المعرفة والمتعلم، أخذ في التضاؤل بحكم هذه

التطورات، ولعل هذه التحولات التقنية، والاقتصادية، والاجتماعية التي يعرفها العالم اليوم، والتي أَلقت بظلالها على المدرسة جعلت البيداغوجيا الكلاسيكية العامة تفقد مكانتها، وبالتالي تسعى إلى تعديل خطابها، وتجديد رسالتها للخروج من أزمتها، وفي هذا الإطار، ظهرت بيداغوجيات جديدة تنهج مع المتعلمين مقاربات متعددة، ومختلفة لكنها متكاملة باعتبار تعدد أبعاد شخصياتهم، وخاصة النفسية، المعرفية، والاجتماعية، وأهم هذه المقاربات: نجد المقاربة السلوكية وبيداغوجيا التدريس بالأهداف، والمقاربة البنائية وبيداغوجيا الكفاءات، والبيداغوجيا الفارقية، والمشروع وغيرها...

ولكن قبل الخوض في النظريات البيداغوجية سوف نستعرض أهم النماذج البيداغوجية والمقاربات في التربية والتعليم.